فلسفة غراب

(الجزء الاول)

محمد كمال ترك

تنهّد غراب الليالي بينما دار محلقا حول عشه محاولا إعطاء أنثاه الإحساس بالأمان؛ إذ همّت هي الأخرى بوضع البيض الذي كان قد حان وقته وطافت بخلده حين ذلك خواطر كانت قد ذهبت عنه منذ زمن بعيد ذكرها حين نظر في بيضه متسائلا عن مصير ذلك البيض في تلك الحياة المروعة التي يعيشها بنو جنسه من الغربان. تذكّر هو نفسه حين كان فرخا صغيرا بين إخوته أنه خرج الأخير لتلك الحياة.. ويا لها من حياة! فقد وجد أول ما وجد أن أمه كانت تطعمه طعاما وإن حلا مذاقه بعد جوع دنا مصدره وعفنت رائحته. لكن ما بيده من حيلة؛ فعليه أن يأكل حتى يحيا وهو لا يدري أيأكل من أجل أن يحيا أم يحيا من أجل أن يأكل! فلِمَ هذه الحياة التي يأكل فيها القوي الضعيف بل ويموت الضعيف هلعا من مصيره المحتوم؟ وإذا نظر في حاله يجد أنه لا يأكل سوى الموق الذين لا يقوون حتى أن يحركوا ساكنا، فيا له من جبن! ومن ناحية أخرى هو يمقت القتل؛ إذ لا يقدر على أن يسلب حيا حياته دون وجه حق لمجرد سد غريزة الجوع عنده أو لمجرد

obeikan.com

القتل عنوة! آه من تلك الفلسفة والأفكار التي تعج برأسه منفردة بقلبه مسيطرة على أحاسيسه وقد تتغلب على غريزته في البقاء حيا فيسقط ميتا وحينها لن تنفعه أسئلته التي بلا حصر؛ إذ سيأكله من هم من بني جنسه غير آبهين له وكأنه ليس منهم.. نعم فهو غريب عنهم بأفكاره، فما من أحد منهم يفكر مثله؛ فهو يفكر في تلك الجيفة التي يأكل وما كان لها من حياة، وهل يرضى أن يأكل أحد جثمانه كما يفعل هو الآن؟ فلا يفكر أحد منهم هكذا، بل قد يأكله أحد أبنائه أو أمه نفسها! نعم أمه، ولِمَ لا؟ ألم تكن هي تلك الحنون التي كانت تخفض له جناح الذل من الرحمة؟ لكن ذلك حين كان فرخا صغيرا لا يقوى حتى على مضغ طعامه، ولمّا كبر واشتد عوده وصار قادرا على البحث عن الجيف بنفسه استحال الحنان إلى إهمال وكأنها تحثه على الرحيل ولسان حالها يقول إنها لن تبقى له طوال الدهر طال الأمد أم قصر، لكنه لم يكن يرى ذلك إنما رأى فقط القسوة فجأة في المعاملة بل الركل والسب وهي تحثه على الطيران من أجل تلك المهمة.. مهمة البحث عن الجيف التي كانت في رأيه دناءة لا أكثر! فهو لم يعِ من تلك القسوة سوى أن لسان حال أمه يخاطبه قائلا: لن أعرفك من الآن؛ فأنت ممن لم يكتب لهم البقاء في تلك الحياة بل وليس لك الحق أن تحلم بالبقاء ما دامت تلك الهواجس في رأسك فأنت عار عليّ بل وعلى كل بني جنسك من الغربان. ومهما دارت به الأيام فلن يُمحى ذلك من ذاكراته.. تلك الأيام التي ذاق فيها من الألم من كل جنس ونوع، برد وجوع، وإن عظم ذلك الجوع إلى أن يهوي به فريسة لبني جنسه لم يكن يؤلمه.. قدر تحليق بني جنسه من فوقه ينعقون بصوت كالموت، بل إن كان للموت صوت فسيكون ذلك الصوت.. ينتظرون خروج الحياة من جسده وهو لا يدري أيمنعهم الحياء وحنين الدم بين بني الجنس الواحد أن يهووا عليه جميعا أم أنها الغريزة الدنيئة في دمائهم! أكل الموتى والجيف، تلك الغريزة التي إن كان يمقتها فعليه أن يشكرها الآن فقد نجّته من فتك بني جنسه.. أي ذل هذا؟ أي قسوة هذه؟

لعنت تلك الحياة، حياة بلا رحمة، حياة من أجل الغريزة لا غريزة من أجل الحياة.. كل تلك الهموم كانت كفيلة بقتله بل بتمزيقه شر ممزق فقد تكالبت عليه كما ود بنو جنسه أن يتكالبوا عليه بل كأنهم هم من أرسلوها عليه لتقتلوه بدلا من مخلبهم مخالب للجيف فقط، الآن علم كيف يكون القتل من بني جنسه.. يا لها من طريقة! أسوأ من افتراس السبع لفريسته، يقتلون بالرعب الذين هم رسله بل ويستهويهم ذلك أشد الهوى.. رفض تلك الغريزة وودّ الموت ولولا رحمة الله رأى أمامه جيفة فأر ميت والليل من حوله ظلام دامس والبرد في عظمه الرقيق يضرب والمطر يهطل من حوله وقد اختلط صوت هطوله بنعيق بني جنسه من فوقه وكأنها الدنيا تنعيه والحياة تلفظه منتظرة لفظه إيّاها.. الموت من كل جانب يطلبه وها هي اللحظة الحاسمة أيموت هو ضحية مبدئه لافظا الحياة متخليا عن غريزته أم يتشبث بها ويموت مبدؤه بداخله بلا رجعة؟

obeikan.com